المحاضرة الخامسة
الحكاية على لسان الحيوان

1 مفهوم الحكاية:

هي نص مكتمل له بداية ونهاية، مبني على الحوار القائم على موقفين متعارضين.

أي أن الحكاية تتحرك ضمن هذا الفضاء المغلق عن طريق الحوار الذي يحرّك تلك المواقف المتعارضة. وعادة ما يكون بنائها قائما على التسلسل المنطقي للأحداث.

2 مفهوم الحكاية المثَلية:

هي تلك الحكايات والقصص التي تروى على لسان الحيوانات، حيث نجدها بتسميات مختلفة كالقصة على لسان الحيوان، أو رواية الحيوان، أو الأمثولة.

الهدف من القص على لسان الحيوان هو تقديم دروس وعبر لنقد سلوك الناس، أو من أجل التطرق إلى قضايا اجتماعية أو سياسية بطريقة غير مباشرة. وقد عرف هذا النوع من القص في كل الحضارات العالمية:

- الآثار المصرية سجلت هذا النوع من القصص نحو قصة السبع والفأر التي تعود إلى القرن 12 ق م.
- اعتمد اليونان عليه لكن في قالب شعري، وكان ذلك في القرن 8 ق م على يد الشاعر هزيودس بقصته الباز والبلبل، ثم على يد شعراء آخرين مثل إيزوب في القرن 6 ق م بقصصه الثعلب والعنب، الغلام والذئب.
- تناوله الهنود بداية من القرن 4 ق م، أي أنهم متأخرين عن الحضارات الأخرى، إلا أنهم أبدعوا فيه، فجاء نتاجهم غزيرا وراقيا.

يرجع بعض الباحثين اهتمام الهنود بالحكاية على لسان الحيوان إلى القرنين 6 و7 ق م، مع تشكيل كتاب الخرافات جاكاتا الذي يروي كيفية تناسخ روح بوذا مع مختلف الحيوانات.

3 القصة في أدب الحيوان:

يرتبط فن القص بهذا الأدب ارتباطا وثيقا، حيث يلعب الخيال دورا أساسيا في نسج مختلف الحكايات، مع ضرورة مزجه بأجناس أخرى مثل الحكمة والمثل والرمز، وهي فنون ترتبط أكثر بالتقاليد والأعراف التي تجمع بين أفراد المجتمع، فتأتي بذلك حكاية الحيوان مؤدية أدوارا عدة كالحكي والشرح والتسلية والتعلم في الوقت نفسه. ولتحقيق هذه الأهداف تنبني الحكايات على:

- **الحكمة والموعظة:** التي تأتي بعبارات موجزة قصيرة قائمة على الأمثال والحكم والأقوال المأثورة، كمقولة الحذر قبل إرسال السهم، إذ يروى أن فرخا هرب بعد أن رأى صيادا يضع سهمه على القوس، قال له والده معاتبا: كان من الأحرى ألا تهرب حتى نعرف مراد الصياد، فكان رد الفرخ بذلك المثل.

- **الحكاية**: تؤدي أدوارها الحيوانات، أحيانا بمفردها، وأحيانا أخرى بالاشتراك مع شخوص آدمية. تمتلك الحيوانات روحا ووعيا، فتتصرف تصرفات الإنسان، حيث تحب وتكره وتحزن وتحتال وتمكر وتفعل الخير تماما مثل البشر.

4 أسباب توظيف الحيوانات في هذه القصص:

يمكن إرجاع سبب استعمال الحيوانات إلى ثلاثة أسباب رئيسية، فإحداها يعود إلى الجانب الجمالي والتشويقي الذي يقف وراء الحكايات والحكم التي تتضمنها، فالإنسان يملك استعدادا لاستقبال الحكمة بطريقة غير مباشرة في حين ينفر منها إن جاءت بصيغة مباشرة، أما الأمر الثاني، فيعود إلى التورية أو الرمز الذي تحمله، فأحيانا لا يمكن للإنسان في الواقع أن يسدي النصيحة خاصة لمن هم أعلى مرتبة منه، لذلك يعتمد على الرمز لإيصال رسائله من دون أن يخاف على نفسه من الضرر الذي يمكن أن يلحق به لو واجههم بطريقة مباشرة.

ولعل معرفة الإنسان بطباع الحيوانات دور في نسج تلك الحكايات حيث يستغل مختلف خصوصياتها لعقد مقارنة مع طباع الإنسان وتصرفاته، وكأنه يريد به أن يبقى على الهوة الشاسعة التي تفصل بين الإنسان والحيوان، وإلا فإنه سينزل إلى مستواها.

5 ابن المقفع وكتابه كليلة ودمنة:

هو مفكر فارسي، عاصر الخلافتين الأموية والعباسية، كان اسمه بالفارسية روزبه بن دادويه، ويقال أن سبب تسميته بابن المقفع هو معاقبة الحجاج بن يوسف الثقفي لوالده وذلك بضربه على يديه حتى تفقعتا (تورمتا). تعلم اللغة العربية، ثم ترجم إليها الكثير من الكتب الفارسية.

عانى عبد الله ابن المقفع مثل بقية المواطنين الكثير من الظلم بعد أن فسدت الحياة السياسية، نتيجة استبداد الحكام، حيث ساد الطغيان والظلم، فحاول ابن المقفع تغيير شيء من الواقع وذلك بإرشاد الحكام إلى طريق الحق والعدل والخير، وإيجاد وفاق بين الحاكم والرعية، فاهتدى إلى وسيلة تتمثل في نقل كتاب من أصول هندية يشمل وصايا وحكم على لسان الحيوانات إلى اللغة العربية ليصل إلى هدفه بطريقة رمزية، فترجم كتاب كليلة دمنة، لكن عمله هذا أغضب الخليفة المنصور لأنه أدرك ما يعنيه هذا الرمز، فطلب من سفيان بن معاوية والي البصرة قتله، وكان هذا الأخير على خلاف دائم مع ابن المقفع، فوجد الفرصة للانتقام منه خاصة وأنه كان يسخر منه،حيث أنه كل ما مر ابن المقفع به إلا ويحييه قائلا السلام عليكما،ويقصد به سفيان وأنفه الطويل.

6 كتاب كليلة ودمنة:

يتضمن قصصا أخلاقية وحكما وأمثالا على لسان الحيوانات، سمي بهذا الاسم نسبة إلى اسمي حيوانين ينتميان على جنس ابن أوى، يشكلان شخصيات الباب الأول والثاني، علما أن الكتاب يشمل خمسة عشر بابا.

7 أصل الحكايات:

يعود أصلها إلى الهند، حيث يقول المؤرخون أنها تعود إلى أواخر القرن الرابع الميلادي، صنفها البراهما وشنو باللغة السنسكريتية، وسمى كتابه بنج تَنْتَرا أي الأبواب الخمسة.

عندما سمع بالكتاب كسرى ملك الفرس أراد الاطلاع عليه لمساعدته على تدبير شؤون رعيته، فأمر بترجمته إلى الفهلوية (اللغة الفارسية القديمة)، واختار لهذه المهمة طبيبه برزويه، وهذا الأخير لم يكتف بترجمة الكتاب بل أضاف له حكايات هندية أخرى، حيث أخذ بعضا منها من كتاب مهابارتا، وافتتح كتابه بسيرته، ووصف رحلته إلى الهند. وفي منتصف القرن الثامن ميلادي نقل الكتاب إلى العراق وترجم على يد ابن المقفع إلى اللغة العربية، وأضيف فيه باب عنون بالفحص عن أمر دمنة، إلى جانب إضافة أربعة فصول لم ترد في النص الفارسي.

8 سبب التأليف:

يقال أن أحد الملوك يدعى دبشليم كان ظالما لرعيته، فذهب إليه أحد الحكماء يدعى بيدبا لينصحه، فغضب دبشليم وأمر بحبسه، لكنه بعد فترة راجع قراره، فأمر بإحضاره، وحدثت مناقشة بينهما اقتنع فيها الحاكم بكلام بيدبا، فأمره بتأليف كتاب يخلد فيه ذكره عند الناس، فقضى بيدبا سنة وهو يكتب فيه، ولما قدّمه لدبشليم أعجب به وأمره أن يقرأه وسط الناس، حيث أعجبوا به وانتشر موضوعه بين عامة الناس. وبعد سنين حضر إلى الهند الطبيب برزويه، وتمكّن بعد جهد من نقل الكتاب إلى الفارسية، ثم نقله ابن المقفع إلى اللغة العربية.

9 شخصيات الكتاب ورمزيتها:

أغلب الشخصيات الواردة فيه تنتمي إلى الحيوانات البرية، فالأسد هو الملك، والثور هو خادمه، وتشكّل الحيوانات والطيور الرعية. وقام الكتاب على ثنائية الظاهر والباطن، حيث أن الظاهر عبارة عن حكايات للتسلية، في حين أن الباطن يهدف إلى النصح الخلقي، والإصلاح الاجتماعي، والتوجيه السياسي.

جاء الباب الأول حاملا لعنوان الفحص عن أمر دمنة، حيث يتناول محاولات المجرم التهرب من العقاب، لكن العدالة في الأخير تتحقق وينال المجرم القصاص. وفي باب الحمامة المطوقة نجد دعوة للتعاون، بينما في باب الأسد والثور، فيتناول خبايا السياسة الداخلية في الدولة وصراع السياسيين فيما بينهم. أما باب البوم والغربان وباب الجرذ والسنور، فيتناول السياسة الخارجية والنصائح المختلفة في هذا المجال، أما باب القرد والغيلم والناسك وابن عرس والحمامة والثعلب والملك الحزين، فتقدم مواعظ أخلاقية فردية.

كل القصص الواردة في الكتاب تعتبر هادفة، غايتها إصلاح الحكم ونشر العدالة بين الرعية.

10 طريقة عرض الكتاب:

يقوم الكتاب على حوار بين الفيلسوف بيدبا والملك دبشليم، حيث يسأله هذا الأخير حول أمر من أمور السياسة أو الاجتماع أو الأخلاق أو المعاملات، ويقوم بيدبا بسرد قصة تتضمن مثلا، وتبدأ بعبارة زعموا، وفي سياق القصة نفسها يكون الانتقال إلى قصة ثانية، فثالثة، فرابعة، وأحيانا خامسة، حيث يكون للأمثال والحكم نصيب بين ثنايا الحوار والوصف، وعندما تستوفي القصة فكرة الحكمة أو المثل، يعود ويُتم القصة التي قبلها، فما قبلها حتى يعود إلى نقطة البداية ليكمل ما تبقى من أحداثها، وغالبا ما يختتم الباب بجملة: وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم .... أي يذكر الهدف من تلك القصة والحكمة القائمة ورائها.

11 وظائف قصص الحيوان:

- **سياسية**: ينتقد فيها الساسة والحكام بطريقة رمزية.
- **تربوية**: هي أيضا نقد اجتماعي وأخلاقي.
- **جمالية**: تقديم موعظة بطريقة غير مباشرة بأسلوب يثير اهتمام القارئ أو السامع، وينمي فيه روح الخيال، جامعا الجدة والهزل في موضع واحد.